

التعليم و"الفكرة الدينية" عند ابن باديس (1913-1940م)

نحو نهضة حضارية شاملة

Education and the "Religious Idea» for Ibn Badis (1913-1940 AD)

To a global cultural renaissance

كريب عبد الرحمان * جامعة ابن خلدون تيارت abderrahmane.korib@univ-tiaret

تاريخ الإرسال: 2022/07/30 تاريخ القبول: 2023/01/28 تاريخ النشر: 2023/01/31

المخلص باللغة العربية: إختار ابن باديس - رحمه الله - في حركته التغييرية التي أسسها في مطلع القرن العشرين بالجزائر، الاتجاه الديني الإصلاحى، وهذا الاختيار تم عن حكمة ودراية، وبعد دراسة علمية للمجتمع الجزائري وواقعه الاستعماري، وتطورات الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي، لان الإصلاح الديني في نظره، هو السبيل الأنجع الى تحقيق النهضة الحضارية الشاملة للامة الجزائرية. وقد إعتبر أن أساس الإصلاح الديني هو اصلاح التعليم ومنهجه، ولا يؤدي التعليم وظيفته الحضارية بنجاح، في تفعيل الفكرة الدينية الإسلامية في سلوك الجزائريين وواقع حياتهم، الا اذا كان تعليما سنيا سلفيا، في منهجه وموضوعه وطريقته، موجها الى القران والسنة، دراسة وتأويلا، ومنفتحا على علوم العصر الحديثة.

الكلمات المفتاحية: ابن باديس؛ الإصلاح الديني؛ الجزائر؛ النهضة الحضارية؛ التعليم؛

السلف

Abstract : Ibn Badis - may God have mercy on him - was chosen in his movement for change, which he founded at the beginning of the twentieth century in Algeria This choice was made with wisdom and knowledge And after a scientific study of Algerian society and its colonial reality, and the developments of reform movements in the Islamic world Reformist religious trend

Because religious reform, in his view, is the most appropriate way to achieve the comprehensive cultural renaissance of the Algerian nation He considered that the basis of religious reform is the reform of education and its

◆ المؤلف المرسل

method and Education does not perform its civilizing function successfully, in activating the Islamic religious idea in the behavior of Algerians and the reality of their lives, unless it is a Salafi Sunni education. . In its approach, subject and method directed to the Qur'an and Sunnah, study and interpretation, and open to modern sciences

Keywords : Ibn Badis, religious reform, civilizational renaissance, education, Es-salaf

مقدمة:

أمام الكم الهائل من الأبحاث التي انجزت في موضوع " التعليم ومنهجه ووسائله وأهدافه عند ابن باديس"، قد يعتبر البعض أن إضافة مقالة جديدة الى مئات الدراسات الأكاديمية وغيرها، لا يعد الا استنساخا لما كتب، أو إعادة لطبعه في قالب جديد فقط. لكن في حقيقة الأمر ان ما ينجز من بحوث وما يقال عن جهود ابن باديس التعليمية وحركته الإصلاحية وجمعياته الدينية، لكي يحقق هدفه المعرفي التام بمرامي حركة التعليم وابعادها الحضارية، يحتاج الى الفهم العميق لحقيقة العمل التغييري الذي أقدم عليه هذا المصلح الرباني الكبير والذي جعل من شروطه الأساسية الأولى اصلاح التعليم وتجديد مناهجه، وإن وفرة الابحاث العلمية والموضوعية الجادة ورقبها العلمي ونجاحها بتحليلاتها واستنتاجاتها في ابراز تفاصيل هذه القضية وتطوراتها، يؤكد في المجال نفسه ان المنهج السردى للأحداث، والاقتصار على الجانب الوصفي فقط، يحيلان الى أحكام بعيدة جدا عن واقع حركة التعليم الباديسية وأهدافها ولا يسمحان بالتحليل والقراءة الكلية للخط الإصلاحي المقرن بين "التعليم" و"الفكرة الدينية" في الجزائر المستعمرة

وتأسيسا على ما سبق، تهدف هذه المقالة الى ان تثير في ذهنية القارئ الكريم قضيتين

متلازمين :

أما الاولى وهي أن حركة العلماء بقيادة ابن باديس إنما كانت تصب في اتجاه فعل حضاري شامل وترمي في مقاصدها الاستراتيجية الكلية الى "قيام النهضة الجزائرية الحديثة على أساس الحضارة العربية الاسلامية"¹.

11تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الاصلاح والتربية الوطنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4، 1984، ص279.

وان هم العلماء الاكبر كان يتركز في مواجهة الاشكالية الحضارية الكبرى التي أرتت زعماء الإصلاح في العالم الاسلامي كله، و تفاعل معها الجميع كل من موقعه، ولكن حسب ادراكه لحدود المشكلة وابعادها وتداعياتها، سواء باعتبار ان النهضة قضية سياسية أو معضلة تربوية أو حالة اجتماعية متدهورة أو أزمة روحية واخلاقية .

أما ابن باديس فقد سمح له حسه الحضاري وفقهه العلمي والواقعي الى الاتجاه الى معالجة جوهر المشكلة وأصلها، بطرح سؤال النهضة المفتاحي فيها : كيف نعيد للفكرة الدينية الاسلامية فاعليتها في نفسية المسلم الجزائري؟ تلك الفكرة الدينية التي وجدت شعوبا كانت منحلة في أفكارها وغرائزها وعقائدها وأعمالها -ونقصد بهم العرب في جاهليتهم الأولى- فأخرجتها من ظلمة الجمود والوحشية الى نور التفكير والمدنية الراقية²؟ وكيف نملاً تلك الهوية السحيقة بين ماضي الامة الإسلامية المشرق وحاضرها التبعس، فتندفع للعمل من أجل التخلص من تعاستها والنهوض من كبوتها؟ فالقضية بصورة أكثر وضوحا في ذهنية رجل الإصلاح الجزائري، هي كيف يحقق الإسلام الذي هو دين الجزائريين وظيفته التغييرية التي انجزها سابقا في المجتمع العربي، فابدع حضارة إنسانية راقية، وذلك بإعادة انتاج الدورة الحضارية مرة أخرى في المجتمع الجزائري الذي يئن تحت وطأة التخلف الشامل وتحريره من الغبن الحضاري الذي يعيشه، والتعاسة التي لازمته منذ قرون عدة، وبهذا يظهر الربط التام بين العمل الإصلاحي والتغيير الحضاري في الجزائر المستعمرة

وأما القضية الثانية وهي سلبية الأولى ومنبثقة منها : فإذا كان هذا هو المقصد الحضاري العام من الحركة الدينية الإصلاحية، فالإشكالية من هذا المنظور تتعدى بذلك المجال الفكري الى المستوى المنهجي، بمعنى انه حتى وإن استفاقت الامة من نومها وغفلتها، وأدركت عظمة الفكرة التي تكتنزها، وعقم الواقع الذي تحياه، فحتى وإن تمكنت من تحقيق هذا القدر من التنبه واليقظة، فما لم تهتد الى الطريق السوي والمنهج القويم في احداث النقلة الحضارية والانعتاق من التخلف، ستضيع جهودها سدى وتبقى تراوح مكانها، وستستنزف امكاناتها الحضارية دون أي إنجازات تقدمية، ففي حدود الفكرة والمنهج يمكن القول في ذلك العهد " ان الجزائر كانت تعيش أزمة حضارة وتفتقر في الاساس الى فلسفة دينية أخلاقية عملية جديدة من شأنها أن تعيد بناء شخصية

2 ابن باديس عبدالحميد، اثار الامام عبدالحميد ابن باديس وزارة الشؤون الاسلامية، ج4، ط1،

1985، ص 49-50

المسلم وتنه به نهضة حقيقية على أسس سليمة³ ولم يكن ابن باديس الا ذلك المفكر الإسلامي المنتج لتلك الفلسفة التغييرية والواضع للمنهج الإصلاحى التعليمى

كان المنطق العملى هو الذى يحكم فكر ابن باديس النهضوى، وليس التنظير على طريقة الفلاسفة والمفكرين الذين يشغلون دوما بتحديد المفاهيم وضبط المصطلحات، وهذه نقطة من الاهمية بمقدار كبير، يجب التنبه اليها في التعامل مع الفكر الباديسى، فهو لا يفرق في ملاحقة مدلول المصطلحات الا بالقدر الذى يحقق فيهما وادراكا، تستوعبه عقول مخاطبيه و تشحنهم بطاقة تدفعهم الى العمل بها وتنفيذها، وهذه طريقة القران ذاته التى اثرها ابن باديس وتبناها في عمله الاصلاحى، وأعاب على العقل المسلم الانخراط في الجدل والصراعات المذهبية وانصرافه عن العمل والتطبيق، وانما ضمن خطابه ودروسه ومجالسه وكتابه الصحفية جوانب عديدة من تصوره لمشروعه الاصلاحى، والتي لا مناص لنا والحالة هذه الا استقراء نصوصه التى وصلت الينا، واستنباط المعالم المنهجية له، وقد أوردنا بعض النصوص كاملة على طولها في هذا المقال حتى نفسح المجال لرجال الاصلاح بالتعبير عن مفاهيمهم كما تصوروا دون مزايده.

كان ابن باديس يراعى قدر عقول مخاطبيه ومستواهم العلمى والامية الضاربة في أطنابهم، وأثر التجهيل والفرنسة الاستعماريين فيهم، فيخاطبهم بالمعاني التى يكون استيعابها ميسورا، ولم يقفز على هذه الواقعية الاجتماعية أو يتجاهلها، كان هدفه الاول كما سئرى تربية جيل قرانى يمشى على الارض ويحقق معاني الاسلام في سلوكه وعقيدته وعلاقاته الاجتماعية، وهذا الذى ربما يفسر عزوفه عن التأليف وكتابة تفسيره للقران الكريم و شرحه لكتاب موطأ الامام مالك اللذين أتمهما القاء وتلقينا رغم الحاح صديقه الابراهيمي عليه في التدوين والتأليف، وكأني به يقول " ما لم تحقق مجالسه وخطاباته ودروسه المباشرة هذا الغرض الاجتماعى، وما لم تجد كلماته الحية أثرها في النفوس وفي واقع الحياة، فما جدوى المقولات المدفونة في بطون الكتب " لقد كان رجلا قرآنيا فكرا وعملا، روحا ومعنى

وينضاف الى هذا ايضا ان ابن باديس كان ينشط في واقع سياسى واجتماعى ودينى محكوم بمنطق الاستعمار وقهره، فيتكلم بميزان ويتحرك بخطى محسوبة،

3على علواش، حركة بن باديس التربوية وأهدافها الاصلاحية، دكتوراه مرقونة، جامعة الجزائر، دائرة الفلسفة، 1983-1984م، اشراف الشيخ ابو عمران، ص 49

ويستعمل التورية هنا والتلميح هناك، ويهاجم مرة ويهادن أخرى، ويفرق بين الشهاب والبصائر، ويميز في تصريحاته بين ما ينسبه لشخصه ورأيه، وبين ما يصدر عن كونه رئيساً لجمعية العلماء الدينية البعيدة عن العمل السياسي، مما يكاد يجعلنا نجزم بالقول انه لم يقل كل شيء يتعلق بخطته الدينية وأفكاره السياسية، ولم يفصح عن كل ما كان يهدف اليه .

1- بين الإصلاح الديني والنضال السياسي: جذور المشكلة الحضارية

يعلوا لبعض الكتابات حول الحركة الوطنية الجزائرية وضع عمل العلماء الاصلاحى في دائرة التأثير الدينى المحض المجرى من أى مضمون سياسى أو بعد تحررى، وتصنيفها كغيرها من الحركات الدينية البسيطة ذات الأفاق المحدودة والمقاصد الروحية التعديدية والأخلاقية السلوكية، كما نلمس عند صنف آخر "في ظل التصور المذهبي الواحد للتاريخ" تمادي أكثر وجرأة في نفي أي بعد استقلالي في مسيرة نصف قرن من الصراع ضد الاستعمار الفرنسي خاضه ابن باديس ومن ورائه جمعية العلماء المسلمين .

وفي حين ان الاستقلال الذي يراه ابن باديس "حقا طبيعيا لكل أمة من أمم الدنيا" ⁴ يزعم هذا الاتجاه أنه لم يكن مطلباً أساسياً من مطالب العلماء، وهو مطلب سياسي بزعمهم، والجمعية كانت تعلن انها جمعية دينية بعيدة عن السياسة فلم "ينظر اليهم بوضوح بوصفهم بناة الاستقلال" ⁵ وتحدث ابن باديس عن الوطن في المنتقد والشهاب، وأعلن أن "الوطن قبل كل شيء" في زمن "ماكانت هذه اللفظة يومئذ تجري على لسان أحد بمعناها الطبيعي الاجتماعي العام، لجهل أكثر الأمة بمعناها وعدم الشعور به ولخوف أفلها من التصريح به" ⁶ وقد لمح أحمد طالب الابراهيمي الى هذا الموقف في الاصرار على خلق التناقض بين الحركة الدينية والحركة السياسية في الجزائر ووصفه بالمعرض و"الاتباعي" لجهات خارجية أو داخلية، وأيضا بالمصلحي والبعيد عن النزاهة الفكرية ⁷ فتلك النظرة التبسيطية الاقصائية لجهد العلماء الاصلاحى، تختزله بعنف وتركه

4- ابن باديس، المصدر السابق، ج 4، ص 49-50

5- على مراد، الحركة الاصلاحية الاسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الدينى والاجتماعى من 1925-1940م، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 8

6- ابن باديس، فاتحة السنة الرابعة عشرة، الشهاب، ج 1، م 14، العدد مارس 1838، ص 02

7 الابراهيمي محمد البشير، أثار الامام محمد البشير الابراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الابراهيمي دار الغرب الاسلامى، ط 1، 1997، ج 1، ص 09

بعيدا عن التأثير في القضايا المصيرية التي شغلت بال الأمة الجزائرية وشكلت محور حركتها

مع ان بن باديس كان رجلا سياسيا باعتبار شمولية الاسلام اولا، فهو دين وسياسة، عقيدة وشريعة ومنهج حياة، وأيضا بحكم توغله في القضايا السياسية و تعدد مواقفه من السياسة الاستعمارية وتصديه لها، ومتابعته الصحيفة لكل ما يمر الجزائريين في دينهم ودنياهم، يقول " وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معا وقد يرى البعض أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة، مع أنه لا بد من الجمع بين العلم والسياسة، ولا ينهض العلم والدين كل النهوض إلا إذا نهضت السياسة بجد"⁸ فالسياسة من الدين ولا يمكن الفصل بينهما.

ليس من اختصاص هذه المقالة أن تبين تهاافت تلك المقولات وسقوطها في وحل الأيدولوجية وبعدها عن الموضوعية في طرحها، أو أن تدلل على البعد السياسي و المنحي الاستقلالي في جهود العلماء، فان تلك الأحكام في اتجاهها العام تصدر عن جهات لم تستوعب طبيعة الحركة الإصلاحية الباديسية، ولم تلامس عقولها جوهر العمل التغييرى لحركة دينية انتصبت للدفاع عن شخصية الجزائر وقيمها الروحية وهويتها الوطنية والحضارية .

فهذا التجني يقع من هؤلاء إما لخلفية مذهبية أو سياسية تحجب عن تقدير العمل الوطني النضالي لزعماء الإصلاح في إنقاذ الشعب الجزائري من " خطر الموت من حيث عقيدته ولغته"⁹ وكارثية الانسلاخ من انتمائه الحضاري وسقوطه في قبضة الصليبية الحاقدة والعلمانية الغربية المقيتة، وإما لعائق منهجي آخر هو الجهل بطبيعة الدين الإسلامي في كونه يمثل أكبر تجربة ثورية عرفها التاريخ ضد قيم الظلم والاستعباد، ظلت تمدنا بنماذج لحركات انقلابية رائدة، اتخذت من روح الإسلام ومبادئه طاقة خلاقة لشحن النفوس ودفعتها نحو قلب الأوضاع السائدة للشعوب المضطهدة وتحريها من الهوان، ونجحت في مسعاها نجاحا مبهرًا

8- ابن باديس، الآثار، المصدر السابق، ج4، ص 331

9 ابن باديس، بين الموت والحياة، الشهاب، المطبعة الاسلامية الجزائرية، قسنطينة، أفريل 1930، ص 156

ان اختيار ابن باديس نهج الإصلاح الديني نابع من فقهه لطبيعة الدين ذاته، ومدى تغلغله في أعماق نفوس الجزائريين، وقوة تأثيره في صياغة شخصيتهم الحضارية عبر التاريخ " فنحن مجتمعات هويتنا الدينية هي العامل الأكثر فعلا في حياتنا، وهي المثل الأعلى الذي حرك العرب والمسلمين الى تلك الانجازات الرائعة"¹⁰ والدين حقيقة روحية خالدة لدى المجتمع الجزائري، متجذرة في بنية وجوده النفسي والتاريخي لا يمكن تجاوزها أو القضاء عليها، وهذه مسلمة لا جدل فيها، لكن هذا وجهها الأول المضيء

أما الوجه الآخر لها فهو قائم ومحزن، يكشفه الراهن الحضاري في عصر ابن باديس وقبلة، إذ يفصح عن حقيقة مؤلمة في واقع المجتمع الجزائري وغيره، وهي ان تلك الفكرة الدينية قد فقدت بريقها ووهجها في حياة المجتمع الجزائري، ونأى بنفسه بعيدا عن قيمها ومبادئها منذ أمد بعيد، وأصبح يعيش في تعاسة وضنك، وأزمة ركود حضاري شامل، استحكمت حلقاتها وتعددت مظاهرها، رغم ما تملكه الفكرة الدينية الاسلامية من قوة دفع للمجتمعات في اتجاه التاريخ والشهود الحضاري

وتلك الحقيقة التاريخية والاجتماعية المجسدة في هذه الازدواجية إلى حد التناقض بين الدين الإسلامي الخالد بما يحمله من قيم حضارية وماض عريق، وبين واقع الحياة في المجتمعات الإسلامية الفارق في الظلامية والتعاسة، قد وعاه ابن باديس وعيا كاملا، فحدد أسبابها ومظاهرها وميز بينهما تمييزا دقيقا، وأيقن أن ما يعيشه الشعب الجزائري من قهر وتخلف حضاري في ظل الاستعمار، إنما أتاه من قبيل سوء فهمه لدينه من جهة، وبعده وانفصامه عنه من جهة اخرى، و أن أصل الأزمة ليس سياسيا ولا اقتصاديا ولا حتى استعماريًا، وإنما الأزمة في جوهرها وحقيقتها "مشكلة منهجية تربوية"¹¹ أزمة على مستوى الفهم والسلوك الفردي والاجتماعي للفكرة الدينية، فوهنت سلطتها على الفرد المسلم، ولم تعد لها فاعليتها المعهودة في حياته وسلوكه، فأصيب بالركود والتقهقر وخرج من دائرة الحضارة وحركة التاريخ

تلك هي جذور المشكلة الحضارية ومكمن الداء كما يحدد ابن باديس بدقة طبيعتها وعقدتها، "فهو مثقف يعيش مأساة مجتمع وحضارته"¹² بكل أبعادها وتداعياتها، في كونها أزمة حضارية شاملة وجوهرها وأصلها فتور أصاب "الفكرة الدينية" المؤسسة

10رياض بن علي الجوادي، الفعالية الحضارية للإسلام، دار التجديد، تونس، ط1، 2020، ص248

11على علواش، المرجع السابق، المقدمة، ص:ق

12أثار الامام ابن باديس، اعداد وتصنيف عمار طالبي، الشركة الجزائرية لصاحبها الحاج عبد القادر

بوداود، الجزائر، ط3، 1997، تقديم مالك بن نبي، ص 14

لحضارته، وأما سبيل حلها فيكمن في تجديد قوتها التأثيرية في المجتمع وسلوكيات أفرادها "لان الحضارة لا تنبعث الا بالعقيدة الدينية"¹³ فينهض للبناء والرقى الحضاري ولكن كيف يتحقق ذلك ؟

بعد أن يهتدي ابن باديس الى أصل الداء وسببه، يتجه نحو حل الازمة ومعالجتها بالمنهج الذي يراه كفيلا بفك عقدها وتجاوز معضلاتها المتفاقمة، وبدلا من التوجه -كما فعل الكثير ممن ينشدون التغيير- الى مظاهر تجلياتها في السياسة والاقتصاد والمجتمع، والذي تمثل فيها "الظاهرة الاستعمارية" واحدة من صورها القاتمة، وجب والمنطق هذا ان يصرف الجهد أولا الى إصلاح "الفكرة الدينية" وبث الحياة في أوصالها وبهذا تكتسب صلاحيتها التاريخية من جديد في واقعنا المعاصر، ويتقرر بعد ذلك أن أي انشغال عن هذا الهدف المحوري في العملية التغييرية هو هدر لطاقات الأمة واستنزاف لرصيدنا الحضاري في طريق النهضة

ووفق هذه الرؤية الاستقرائية التشخيصية للواقع والمآل يبين ابن باديس في مقال نشرته الشهاب مبررات اختيار منهج الإصلاح الديني على غيره من وسائل التغيير بقوله "...إننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها على علم و بصيرة."¹⁴ وبعد دراسة علمية لاستعداداتها وتوجهاتها كما يشترط الابراهيمي في من يريد ان يسلك طريقا تغييريا بالأمة بقوله "من أراد ان يخدم هذه الامة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية" والا كان مصيره الفشل وتشتت جهودها¹⁵

والمفاضلة عند ابن باديس بين العمل الديني والعمل السياسي لا تخضع لمزاجية الافراد وطموحاتهم و مكاسبهم الآنية، ولا لعجز أو قصور في مزاولة النشاط السياسي، اذ يقول صراحة "ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهرا، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها، ولكن أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وان نبلغ من نفوسنا إلى أقصى غايات التأثير عليها"¹⁶ ولكنه اختيار يقوم على أداء الواجبات قبل المطالبة بالحقوق، وعلى البذل والعطاء بدل السعي الى تحقيق المكاسب، وتلك هي القاعدة المؤسسة لنهضة الأمة، والمحددة لشروط انطلاقتها الحضارية "أي طريق المحافظة على الذاتية الجزائرية، أي

13- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبدالصبور شاهين، دار الفكر، 1986 ص 50

14- ابن باديس حياته اثاره، المصدر السابق، ج3، ص295

15- الابراهيمي، الاثار، المصدر السابق، ص 209-210

16- ابن باديس حياته اثاره، المصدر السابق، ج3، ص295

المحافظة على دين البلاد وعلى لغتها وعلى تقاليدنا وعلى مدنيته الخاصة وعلى توثيق الرابطة بين حاضرها وبين تاريخها المجيد"¹⁷، رغم الكلفة الباهضة التي يستدعيها هذا العمل وما يحيط به من مخاطر الرفض وعدم الاستجابة حتى من الامة نفسها، لان "القائد الذي يقول للامة: انك مظلومة في حقوقك واني اريد ايصالك اليها"، يجد منها ما لا يجده من يقول لها " انك ضالة عن اصول دينك واني اريد هدايتك " فذلك تلبيه كلها، وهذا يقاومه معظمها أو شطرها"¹⁸ وبطبيعة الشعوب المنحدرة ثقافيا كحال الشعب الجزائري في نهاية القرن التاسع عشر أن تتخدر بالخطابات العاطفية وتنومها الوعود الكاذبة وتقع فريسة الأوهام .

فالعامل التغييري الموجه الى المجتمع من أجل اصلاح أفكاره وبناء ذهنيته وتربية نفوس ابنائنا على الخلق القويم والمسؤول، ليكون مجتمعا واعيا مؤطرا، مستوعبا لدينه، "سيتحول الى مؤسسة رقابية دقيقة وشاملة... وضمانة قوية لإنجاح عملية التغيير وحمايتها من الانحراف"¹⁹ وبتعبير أقرب إلى استيعاب البعد الاجتماعي والثقافي والسياسي للحركة الإصلاحية، فإن عمل العلماء كان يتجه الى "تغيير ذهنية مواطنيهم بجعلهم يتحولون من رعايا وخدم وغير مسؤولين في الغالب، إلى رجال قرار وتزويدهم بروح المبادرة والمسؤولية وبكلمة واحدة، إلى إيقاظ الفضائل الاجتماعية التي تجعلهم أناسا أحرارا في أنفسهم"²⁰ فتحرير الأذهان قبل تحرير الاوطان

أما السلطة التي تسيّر المجتمع في مرحلة ما من مراحل تطوره، سواء كانت مدنية أو عسكرية، منبثقة منه أو مفروضة من خارجه، ما هي الا انعكاس لها في نفسية المجتمع وطبيعته، أي ما يختزنه من قوة ثقافية وسياسية، فهي عبارة عن آلة اجتماعية تتغير وتتغير حسب الوسط الاجتماعي والثقافي الذي أنتجها. فاذا كان الوسط نظيفا حرا، فما تستطيع السلطة أن تواجهه بما ليس فيه، واذا كان الوسط متمسما بالقابلية للاستعمار فلا بد من أن تكون حكومته استعمارية كما يقول مالك بن نبي رحمه الله²¹ وهذا ما يفسر مبدأ الآية الكريمة الذي حملته دعوة ابن باديس وكل الحركات الإصلاحية

17 ابن باديس، بين الموت والحياة، المقال السابق، ص 154

18 نفسه

19 الطيب برغوث، التغيير الاسلامي، خصائصه وضوابطه، مكتبة رحاب، الجزائر، دت، ص 161

20 على مراد، المرجع السابق، ص 411

21 مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق، ص 40

في العالم الإسلامي " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " ²² وهو منهج الإسلام في حركته الانقلابية ضد الأوضاع السائدة مهما كانت ظلاميتها وسوداويتها، المؤسس على سنن الله في الافاق وفي الانفس و"الاستعمار كما يرى ابن باديس ما مكن لنفسه في بلاد الاسلام، الا لأنه وجد من يمدّه بالقوة من الداخل، ولو أن المسلمين قطعوا عنه الإمدادات لانكمش ورجع خاسئاً مدحوراً " ²³ فالإصلاح الاجتماعي مبدؤه الإصلاح الفردي وتغيير ما بالنفس من الافكار والعقائد فيتغير الواقع والتاريخ

ان الوعي العام الذي بثته الحركة الإصلاحية الباديسية ورفعت من مستواه عالياً، بواسطة التعليم والصحافة والجمعيات والرحلات العلمية، في المساجد والكتاتيب والزوايا والمدارس، والتظاهرات العلمية والثقافية، إنما هو الوعي الحضاري الشامل على مستوى الأفراد وفي نطاق الجماعة، وفي جميع مناحي الحياة، لأنه وعي يقوم على " التعبئة الشاملة للأمة من أجل الوقوف في وجه التحدي الحضاري الخطير الذي يريد الامتداد والبقاء على حسابنا كدين ورسالة وحضارة وتاريخ وأمة ومستقبل " ²⁴ ولا يشكل الوعي السياسي من أجل التحرر والانعتاق الا جزء منه، فهو إنجاز مرحلي ضمن أهداف إستراتيجية كبرى يتضمنها المشروع الإصلاحي في اطار الدورة الحضارية الكبرى التي انطلقت في العالم الإسلامي

وهذا الاستعمار المادي المباشر الجاثم فوق الارض لا يعد الا حلقة من حلقات ذلك المد الصليبي الاستكباري المستمر الذي يقتضي المواجهة الشاملة والنفير العام، فابن باديس "لم يهتم بالاستعمار كظاهرة منفصلة عن محيطها الاجتماعي ومعطياتها الاقتصادية ومناخها الفكري، لأنه ينظر الى الظاهرة بعين الفيلسوف وليس بعين السياسي " ²⁵ ولا تشكل المقاومة السياسية في حقيقة الأمر عنده الا رافداً من روافد تلك المواجهة، وجبهة من جبهات النضال ضده، لا تقل عنها شأنًا وخطورة المقاومة الدينية والثقافية كما أسس لها زعماء الإصلاح، بل لا يمكن للعمل السياسي المحض الصمود والنجاح وتحقيق أهدافه، إلا إذا اتكأ على قاعدة شعبية عريضة مثقفة وواعية، رابط على تكوينها العلماء نصف قرن من الزمان

22سورة الرعد، الآية12 برواية ورش عن نافع

23باعزيز بن عمر، عظمة الاستاذ الاكبر عبدالحميد ابن باديس، جريدة البصائر، ج ع م ج، العدد

34، 03 ماي سنة 1948، ص01

24الطيب برغوث، المرجع السابق، ص13

25محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، طبع وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص78

هذا الذي فقته الحركة الإسلامية الإصلاحية بقيادة علماء الجمعية، وهو عين ما اشارت اليه ليكو دي باري (L'Echo De Paris) إحدى جرائد الاستعمار، كما نقلتها "البصائر" عنها إذ تقول: "إن الحركة التي يقوم بها العلماء المسلمون في الجزائر أكثر خطراً من الحركات التي قامت حتى الآن؛ لأن العلماء المسلمين يرومون من وراء حركتهم هذه إلى هدفين كبيرين، الأول سياسي، والثاني ديني، والعلماء المسلمون المثقفون هم العالمون بأمور الدين الإسلامي وفلسفته، والواقفون على أمور معتقداته، فهم لا يسعون إلى إدماج الجزائر بفرنسا، بل يفتشون في القرآن نفسه عن مبادئ استقلالهم السياسي"²⁶ بهذه الاندماجية التامة بين كل ما هو ديني وكل ما هو سياسي

ان الجهد الحضاري المنقطع النظير الذي بذلته الحركة الإصلاحية، شكل الرصيد الغني الذي مد للحركة الاستقلالية بطاقة خلاقة وقاعدة ثورية عريضة دفع مؤلفي "الجزائر في التاريخ" إنصافاً لجهود العلماء وتقديراً لتضحياتهم إلى القول "إننا قادرون الآن بعد فوات بعض الوقت، أن نقدر نشاط الجمعية بكل موضوعية.. لا يمكن حصر نشاطها في مواجهة الرجعية ونشر اللغة العربية، يجب التأكيد على الآثار الطويلة المدى لبرنامجها الاجتماعي على الأجيال اللاحقة، تلك الأجيال التي تساهم في حرب التحرير وفي إعادة بناء الجزائر المستقلة"²⁷ فالعمل الإصلاحي بطبيعته عمل هادئ، يحفر في أعماق النفس الإنسانية ويعيد تركيبها فكرياً وروحياً وسلوكياً، ويرمم شبكة العلاقات الاجتماعية ويمتن نسيجها في صمت، فهو عمل بنائي، يقتضي زمناً ليؤتي ثماره ونتائجه

وعن وضوح الطموحات الثقافية والسياسية للحركة الباديسية يقول على مراد "لن تكتفي بالقيام بأعمال دعاة دينيين أبرياء ومعلمين بسطاء يدرسون اللغة العربية، بل يعتزمون الإسهام أكثر من غيرهم في إحياء الثقافة العربية في الجزائر وكذا التأكيد على الشخصية الوطنية للشعب الجزائري"²⁸

2- ابن باديس: الداعية المجدد ورجل المرحلة :

26 ليكو دو باري، ماذا يقال عن جمعية العلماء؟ (L'Echo De Paris) البصائر، ج ع م ج،

السنة الثانية، العدد 61، 20 محرم 1937 الموافق 02 أبريل 1937م، ص 87

27 محفوظ قداش، الجيلالي صاري الجزائر في التاريخ، "المقاومة السياسية 1900-1954"، تر:

عبدالقادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 246

28 على مراد، المرجع السابق، ص 408

يمثل ابن باديس علما على مرحلة مفصلية في تاريخ الجزائر الحديث، بين أفول وانبعث، بين حقبة أوشك المشروع التجهيلي التغريبي الاستيطاني والصليبي أن يصل الى مبتغاه، و نهضة علمية وثقافية وحضارية كان هو رائدها وزعيمها، انتشلت الجزائر وشعبها من السقوط في هوة سحيقة من المسخ الاستعماري والتخلف الحضاري

فحالة الفتور الديني التي انحدر اليها الجزائريون، تنذر بخطورة الموقف وعمق النكسة، يصفها رحالة بلجيكي قبيل الحرب العالمية الاولى بقوله "ان الاسلام ليرى ممزقا تمزق الثوب البالي على ارضفة الجزائر"²⁹ مما ينبئ بتفسخ أخلاقي عام وانحراف عن القيم الاصلية للمجتمع، نتيجة انتشار الافكار الغربية المضللة خاصة وسط العمال " ولو كان في الجزائر معامل مثل تلك التي في اوربا لاختمى الاسلام السني من تلك الديار"³⁰ ورغم ما تحمله هذه النظرة من تعميمية من رحالة عابر، الا انها تشير الى وجود الازمة وثقافتها

أما حالة الانسان الجزائري المتردية ومعيشته الضنكة، وقد فقد كرامته واستسلم لجلاده، عبر عنها مثقف جزائري بكل ألم وحرقة وهو الأمين العمودي بما يرويه عن نفسه "أما حياتي فحياة كلّ مسلم جزائري، حياة بلا غاية ولا أمل، حياة من لا يأسف على أمسه، ولا يغبط بيومه، ولا يثق في غده، تلك حياتي من يوم عرفت الحياة، لم أظفر بعقد هدنة مع الدهر الذي أشهر عليّ حرباً عواناً لا أدري متى يكون انتهاؤها، ولا أظن أن يكون لها انتهاء؛ لأن هذا العدو القويّ الظلوم الجائر الغشوم لا يمسك عنيّ إحدى يديه إلا ليصفعني بالأخرى"³¹ وهذه الهزيمة النفسية لهي أثقل على الأمة، حين يفقد الانسان فيها الاحساس بالذات وينطفئ ذلك البريق الداخلي والوهج الخلاق الذي يدفعه الى التحرك والعمل، وتفقد الامة معه قدرتها على التفوق والتقدم³²

وليس أخطر من أن يصل الانسان المستعمر الى حالة التيه الحضاري هذه، ويفقد فيها ثقته في نفسه وفي دينه و تاريخه وحضارته "حتى خارت النفوس القوية ودفنت الآمال في صدور الرجال وأستولى القنوت القاتل واليأس المميت، فأحاطت بنا الويلات

29 عمار طالبي، مدخل الى الحياة العقلية والنهضة الحديثة بالجزائر، اثار ابن باديس، المصدر السابق، ج1، ص48

30 نفسه

31 محمد الهادي سنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، المطبعة التونسية، تونس، ط1، 1996، ج2، ص 20

32 جاسم سلطان، الذاكرة التاريخية: نحو وعي استراتيجي بالتاريخ، ام القرى، ط3، 2007، ص 18-

من كل جهة، وانصبت علينا المصائب من كل جانب"³³ كما يصور ذلك ابن باديس في نظرة نقدية لواقع المجتمع الجزائري وما آلت إليه حياتهم

ولكن بحركته الاسلامية الرائدة، وصيحته المنذرة والمبشرة " بدأت معجزة البعث تتدفق من كلماته، فكانت ساعة اليقظة وبدأ الشعب الجزائري المخدر يتحرك، ويالها من يقظة جميلة مباركة.. فتحولت المناجاة الى خطب ومحادثات ومناقشات وجدل، وهكذا استيقظ المعنى الجماعي وتحولت مناجاة الفرد إلى حديث شعب"³⁴ كما يقول عنه مالك بن نبي في قراءته للحركة الإصلاحية

لقد هيأت العناية الإلهية هذه الشخصية الفذة المتكاملة ليكون المنقذ والمؤذن ببداية دورة حضارية جديدة في الجزائر، وهو ما يعنيه صديقه الإبراهيمي بوصفه "باني النهضة العلمية والفكرية في الجزائر وواضع أسس صخرتها على الحق.. ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح"³⁵ فإنجازاته وأعماله جاءت " تأكيداً لشخصية تعمل على الصعيد التاريخي لحضارة ما"³⁶

وتبرز مؤثرات عديدة في حياة ابن باديس ساهمت في تأهيله ليكون رجل النهضة ومهندسها منها ما له صلة ببيئته وظروف حياته وواقعه الجاثم عليه كابوس الاستعمار، ومنها ما له علاقة بتعليمه ومعلميه ورحلاته العلمية، ولكن تتميز منها عوامل خاصة كانت لها أكبر الأثر في هذا التوجه الرسالي الاصلاحى، يبينها هو نفسه كما شعر بها، في خطابه بمناسبة ختمه لتفسير القران الكريم في مدينة قسنطينة بالجامع الاخضر في جوان 1938م³⁷ يقول: " إن الفضل يرجع أولاً الى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة ورضي لي العلم طريقة اتبعها ومشرباً أردته... وكفاني كلف الحياة " لقد اعتنى به والده عناية خاصة، وهياً له كل شروط النباعة والتميز " ثم لمشايخي الذين علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يخسوا استعدادي حقه "

33 ابن باديس، الآثار، المصدر السابق، ج3، ص 23

34 مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق، ص 24

35 الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المصدر السابق، ج3، ص 552

36، مالك بن نبي تقديم - آثار ابن باديس، المصدر السابق، ج1، ص 14

37 ابن باديس، الشهاب، عدد خاص بمناسبة الاحتفال بختم الامام ابن باديس تفسير القران الكريم،

ج4، م14، جوان - جويلية 1938، ص 288-291

ولكنه يخص بالذكر علمين بارزين كان لهما ابلغ الاثر في تربيته وفي حياته العملية والعلمية، ووجه التأثير كما يقول، أنهما " تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي الى التربية والتنشيف والاختذ باليد الى الغايات المثلى في الحياة "فقد تعهدوه بالرعاية والتوجيه والنصح، أولهما "حمدان الونيسي"، نزيل المدينة ودفينها " فقد وصاه وصية وعهد اليه بعهد الا يقرب وظيفة ولايتخذ من العلم مطية لها وقد كان لهذا العهد كما يقول "أثر في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي " واما الشخصية الثانية صاحبة الأثر البالغ هذه المرة في حياه العلمية وتوجهه العلمي، وهو "الشيخ النخلي" وتوصياته في طريقة تعامله مع القران وفهمه وتدبره والتأدب بأدابه فتحت له في ذهنه أفقا واسعة³⁸ وهنا يفسح المجال للحديث عن العامل الاقوى تأثيرا في حياته الدينية والعلمية والاصلاحية وهو "القران" كما سنشير اليه فيما هو قادم

وبهذا تظهر عوامل التميز واضحة، في تربية صحيحة وتعليم واعي، خصه به والده وشيوخه، وهذا هو المبرر لاختياره التعليم منهجا لتغيير واقع الجزائريين، لما لمسهم فيه من تأثير عجيب في صناعة الأجيال الواعية، مثلما جعلت منه شخصية باهرة صادقة تملي قوتها وعظمتها على الخصوم والأصدقاء معا وتحقق الاجماع الوطني، وانتخبته ليكون حامل لواء التغيير والتجديد في القرن الرابع عشر الهجري في الجزائر، حتى يقول أحد تلامذته عنه " اذا سمعك رأيا في التعليم أو في السياسة والاجتماع أسمعك صوتا من نفسه المتوثبة، فأبصرت شعاعا من روحه ولمحة من ذكائه .. فهو لا يعرض رأيا الا رأيت روح الحكمة الصادقة تترقق فيه وإخلاص ابن باديس يشع فيه وسمو عظمته يغشاك من كل جانب"³⁹

3- سؤال النهضة :الاسلام الذاتي أم الاسلام الوراثي ؟

راهننت الحركة الإصلاحية الباديسية على الإسلام كمنهج إنقاذي تجديدي، لأنه القوة الوحيدة القادرة على صناعة التاريخ وخلق ديناميكية فعالة لدى الشعوب الاسلامية، وبعث الحياة فيها بعد الجمود ". "والدين من أقوى الوسائل التي يعول عليها في إيقاظ ضمير الأمة وتنبه روحها"⁴⁰، ورفع مستوى الوعي لدى أفرادها بواقعهم الحضاري المتردي

38- ابن باديس، الشهاب، عدد خاص، ص288-291

39- باعزيز بن عمر، المرجع السابق، ص 01

40- مصطفى صادق الرافعي، اللغة والدين والعادات، باعتبارها من مقومات الاستقلال، الشهاب،

ج3، م12، ص 117

ولو قلنا ان برنامج ابن باديس المؤسس لحركته مستمد مرجعيته من الاسلام كمنهج حياة لكفى للتدليل على متانة وشمولية خلفيته الأيدولوجية، ولكن أي أسلام هذا الذي يعول عليه ابن باديس : هل هو الإسلام الوراثي التقليدي العاطفي الذي يؤخذ من الآباء بدون نظر ولا تفكير ؟ أو إسلام العوام الذي أوهنته البدع الاعتقادية والخرافات فأهملت أخلاقه وأدابه وأحكامه ؟ و المثلث بالأفكار الميتة والمميتة ؟ ام الاسلام الذاتي القوي المبني على العلم والتفكير ؟ يثير ابن باديس هذه القضية الخطيرة في سؤال توجيهي تعليمي ويتساءل : أيهما ينهض بالأمم حقيقة:الإسلام الوراثي أم الإسلام الذاتي⁴¹؟

لا يترك ابن باديس الشعب الجزائري في حيرة وتيه، وسرعان ما يرسم له الطريق بوضوح ويبين له المنهج السوي الذي يجب أن يسلكه، فهو بداهة "لا يتصور منهجا اخر للشعب الجزائري خارج دائرة الاسلام"⁴² لكنه ليس الاسلام الوراثي "الذي يتبع فيه الابناء ما وجدوا عليه الاباء، ويؤخذ كله بدون نظر ولا تفكير، وبكل ما ادخل عليه وليس منه من عقائد باطلة وأعمال ضارة، مبين على الجمود والتقليد"⁴³ ولكنه الاسلام الحقيقي، "الإسلام الذاتي" المبني على الفهم والنظر، لا الجمود والتقليد، الذي ينهض الامم ويدخلها الى التاريخ، بعد أن ينه أفكارها ويفتح أنظارها، إنه الاسلام الحضاري القائم على التفكير في آيات الله السمعية والكونية، وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر، فتنهض الامم بعد قعود، وتستثمر تراثها، وتشيّد صروح المدنية والعمران⁴⁴ وايضا الاسلام المتحرر من المذاهب الوضعية الدخيلة على الامة لان، ففي خطاب عام وجه كلمة الى التيارات السياسية يبين فيه غنى الجزائر ياسلامها عن المناهج المستوردة فيقول "الاسلام عقد اجتماعي عام فيه كل ما يحتاج اليه الانسان في جميع نواحي الحياة ورقيه...وأن المسلم الفقيه في الاسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة"⁴⁵ فطريق الاسلام هو الطريق الأنسب للخلاص والتحرر

4- حتمية "تحرير" الاسلام :

41-ينظر الى النص الكامل لأبن باديس، الاسلام الذاتي والاسلام الوراثي : أيهما ينهض بالأمم ؟

الشهاب، ج3، م 14، ربيع لاول 1357هـ/فبراير 1938م صص 105-107

42تركبي رابع، المرجع السابق، ص226

43ابن باديس، أيهما ينهض بالأمم، الشهاب، المصدر السابق، ص 120

44نفسه

45-ابن باديس، خطاب رئيس ج ع م ج، بنادي الترقى بالعاصمة، الشهاب، ج8، م12، شعبان

1355، نوفمبر 1936، ص 357

وبهذا يصوغ ابن باديس مشروعاً حضارياً متكاملًا، يستمد روحه من قواعد الإسلام " المتحرر " من الأفكار والعقائد المعطلة لأي نهضة، ومن أحكامه ونظريته العقلانية المستقلة إلى الحياة والكون والإنسان، ورؤيته الواسعة التي تستوعب التاريخ الحضاري للشعوب ككل .

لذلك يدعو ابن باديس بإلحاح إلى ضرورة تحرير الإسلام من الأغلال التي أحاطت بكيانه، حتى يسترد فعاليته في المجتمع، وينفخ فيه روح الحياة من جديد، تحريره أولاً من الاستعمار الروحاني الذي تولته الطريقة المتعفنة بالبدع والخرافات المسممة للأفكار والملوثة للوجدان والماسخة للفطرة، فهي بلاء على الأمة من الداخل والخارج⁴⁶ تتعاقد مع الاستعمار المادي الفرنسي في سبيل تجهيل الأمة لئلا تفتيق وتتوعى بالعلم فتسعى للتحرر والانعتاق⁴⁷ وهذه الجبهة لهي من اشرس الجبهات التي رابطت فيها الحركة الإصلاحية وجعلتها من اولوياتها

لقد أصبح للخرافة في الجزائر مؤسساتها وحراسها والداعين اليها، وأطبقت " الطريقة " على الفكر واصابته في مقتل، فتبدل العقل واستقال من الحياة⁴⁸، ان خطر البدع يكمن في أعاققة الفكر والدين عن تأدية رسالتهما في نهضة المسلمين وتقديمهم الحضاري، ولذلك وجب تطهير الدين الاسلامي من البدع والخرافة والعودة به الى منبعه الصافي واصله الاول كما بدأ، حتى تعود له قوته الدافعة للامة نحو طريق الحضارة⁴⁹ ان المنهج السليم في تحرير الدين من الافكار القاتلة يكون بالعلم و" بقدر تمسك الامة بأسباب العلم كان رفضها للجمود والخرافات والاضاع الطريقة المنحدرة الى الفناء والزوال"⁵⁰

46 ابن باديس، فاتحة السنة الرابعة عشرة، الشهاب، ج1، م 14، العدد مارس 1838، ص06

47 البشير الابراهيمي، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 21، ص 145

48 لقد سيطرت الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي، والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، سيطرة مذهلة، فبلغ عدد الزوايا في الجزائر 349 زاوية وعدد المريدين أو الإخوان 295000 مريد. والفقهاء الذين عرفوا بمعارضتهم الصوفية أصبحوا بدورهم "طرقيين" فساد الظلام، وخيم الجمود، وكثرت البدع، واستسلم الناس للقدر، وأصبحوا إذا سئل أحدهم عن حاله أجاب " :نَأْكُلُ الْقُوْتُ وَنَسْتَتِي فِي الْمُوْتِ (وهذه الظاهرة الاجتماعية أدت إلى تعطيل الفكر وشلّ جميع الطاقات الاجتماعية الأخرى. عمار طالبي، مدخل الى الحياة العقلية والنهضة الحديثة بالجزائر، المرجع السابق، ص18

49 تركي راجح، المرجع السابق، ص 272

50 ابن باديس، فاتحة العام الثاني من العقد 2، الشهاب، ج1، م 12، محرم 1355، أبريل 1936،

وهذا لا يكون الا بتعليم العقيدة الصحيحة وغرس اصول التوحيد ومحاربة الوثنية الجديدة والضلالات الصوفية

لقد كان من أولويات التربية عند ابن باديس تحرير الفكر الديني من سيطرة البدعة ومعوقاتها وقد حقق العلماء نجاحا في هذا المجال " حتى أصبح القطر الجزائري كله يكاد لا يخلو بيت من بيوته ممن يدعو الى الاصلاح، وينكر الجمود والخرافة ومظاهر الشرك القولي والعملي وأصبحت البدع والضلالات تجد في عامة الناس من يقاومها وينتصر عليها⁵¹ وبهذا يكون العلماء قد أنجزوا جزءا خطيرا من رسالتهم الدينية والحضارية في الجزائر

وتحريره ثانيا من القيود والقوانين التي عطلته وحدت من حركته، فطالب بفصل الدين الإسلامي ومؤسساته عن الدولة الفرنسية العلمانية، واسترجاع الجهاز القضائي والاحتكام الى الشريعة، واسترداد ممتلكات الأوقاف الإسلامية، كما طالبوا بان تكف فرنسا عن مراقبة حركة التعليم العربي الحر ومؤسساته والتضييق عليه⁵²

كما جعل ابن باديس همه الأكبر الاخر، هو تحرير اللغة العربية أيضا، وبعثها من جديد ونشرها بين الافراد، لأنها أداة فهم الإسلام واستيعاب حقائقه وتبليغها للنشء، ولسانه الأصيل الذي يوصل به مقاصده إلى الشعب، ويخاطب بها عقولهم، ويصل بها إلى وجدانهم، فيبني بها المدارك ويحرك بها الضمائر، ويعتقد جازما أنه ما لم تسترد العربية عافيتها ومكانتها في البلاد فلن تقوم للإسلام قائمة، ولن يحقق هدفه السامي الذي يسعى اليه خدمة للدين والعلم والانسان، فاللغة العربية سمة من سمات الشخصية الجزائرية، وركن ركين من ثقافتها، وبها يتميز المجتمع الجزائري الاصيل عن المجتمع الفرنسي الدخيل، وبها تتحدد هويته الحضارية، وفق هذا المبدأ الخالد " الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا "

5- التعليم أساس النهضة الحضارية :

⁵¹نفسه

⁵²أصدرت فرنسا سلسلة من القرارات الرامية للحد من نشاط العلماء الاصلاحيين وخاصة القانون الخاص بأجلاء النوادي وقانون مارس 1938الذي يقضي بغلق المدارس وتعطيل التعليم الحر

إن هذا الإسلام "المتحرر" الذي أفنى ابن باديس حياته في خدمته وتعليمه (1913-1940)، و الذي يدين به ويعيش من أجله ويدافع عنه⁵³ ويدعو المسلمين إلى ضرورة تعلمه وتعليمه للأجيال، ويراه كفيلا بالنهوض بالمجتمع الجزائري وإخراجه من دائرة التخلف، والذي في نظره لا يمكن أن يكون المسلم مسلما حتى يتعلم الإسلام، هذا الإسلام لا يمكن الوصول إلى تحقيق معانيه في واقع الناس إلا عن طريق واحد فقط وهو "التعليم" انه الوسيلة المثلى لنقل أحكام الدين ومبادئه وأخلاقه وآدابه للناس "فلا حياة الا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم، فلن يكون عالما الا من كان متعلما، كما لن يصلح معلما الا من قد كان متعلما، ومحمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله معلما كان أيضا متعلما، علمه الله بلسان جبريل، فكان متعلما عن جبريل عن رب العالمين، ثم كان معلما للناس أجمعين"⁵⁴ فالتعليم منهج رباني لتلقين أصول الاسلام ومبادئه وأحكامه

و "المنهج" الذي تراه الحركة الاسلامية الاصلاحية ناجحا في بناء الانسان الحضاري الواعي المؤهل لبناء مجتمعه وحضارته فقد تضمنه مبدؤها وشعارها الذي حملته جريدة الشهاب في صدر صفحتها الاول " لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها"⁵⁵ وبه فقط ستبصر الامة غايتها وهدفها، وستسير اليه بخطى ثابتة، وستتعرف على رسالتها في الحياة من جديد .

وعن طريق التعليم تنشأ النخبة المتعلمة المثقفة التي تتولى قيادة حركة النهوض بالامة، إذ لا صلاح للامة إلا بصلاح علمائها كما يؤكد ابن باديس " فلن يصلح المسلمون حتى يصلح علماءؤهم، فأن العلماء من الامة بمثابة القلب، وصلاح المسلمين إنما هو بقههم الإسلام وعملهم به . فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءؤهم، ولن يصلح العلماء الا اذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع شخصية المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبله من عمله لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم"⁵⁶

53 ابن باديس، لمن أعيش؟ الشهاب، ج10، م12، شوال 1355/يناير 1937، ص428
54 عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003، ص343

55 انظر الشهاب، وهو قول لمالك بن أنس (ض)

56 ابن باديس، صلاح التعليم اساس الاصلاح، الشهاب ج11، م10، عدد اكتوبر 1934، ص3

اذن فعلى التعليم مدار الأمر كله، والعناية به ودعم مؤسساته، دليل على استفاقة الأمة من غفلتها "ولأدل على وجود روح الحياة في الأمة وشعورها بنفسها ورغبتها في التقدم من أخذها بأسباب التعليم، التعليم الذي ينشر فيها الحياة وبيعثها على العمل، ويسمو بشخصيتها في سلم الرقي الانساني ويظهر كيانها بين الامم...وبقدر ما كان تمسك الامة بأسباب العلم كان رفضها للجمود والخمود والخرافات والأوضاع الطرقية المتحدرة للفناء والزوال"⁵⁷ فانتشار التعليم معيار لوعي الامة وتحورها

وهكذا يبدأ نبض الحياة يعلو لدى الامة، ويتحقق نفعها لنفسها وتساهم في بناء الحضارة الانسانية، ووعيتها بنفسها وبمقوماتها وروابطها وينشأ الانسان القادر على الفعل الحضاري "إنما ينفع المجتمع الانساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر الى ماضيه وحاله ومستقبله، فأخذ الاصول الثابتة من الماضي وأصلح من شأنه في الحال ومد يده لبناء المستقبل، يتناول من زمنه وامم عصره ما يصلح لبنائه معرضا عما لا حاجة له به أو ما لا يتناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصالحته"⁵⁸ هكذا في حركة استيعابية للماضي وأصالته ووعي بالحاضر وإضافاته الحضارية بانتقائية تنسجم مع قيمه وحاجاته، بهذا التمايز بين مجتمع وآخر، وفي هذا رد على دعاة الادمج او المستلبين حضاريا والمنبهرين بالمدينة الغربية

5- حركة التعليم وبداية النهضة :

تعكس لنا بعض النصوص حالة "القلق" التي انتابت الزعيمين الاصلاحيين، الابراهيمي و ابن باديس على مصير وطنهما وشعبه، وهو يكابد رحي الاستعمار الصليبي الفرنسي، تدك حصونه الدينيه واللغوية والوطنية، وتهد بنيانه الاجتماعي وتفكك روابطه، هذا الشعور المتنامي بالخطر المحقق الذي يهدد بضياع الأمة وانحلالها واضمحلالها، يمثل حقيقة بداية التوثب الحضاري في الأمة، فقد خلق في نفسيتهما الدافعية الدعوية الجهادية، والحافز الاكبر لرفع لواء المواجهة .

وهذا الميلاد الاول للأفكار التغييرية كانت بوادره الاولى في المدينة المنورة عام 1913م وفي ظلال المسجد النبوي الشريف أين كانت ترتسم الخطى النهضوية وتنضج بالحوار، بين ابن باديس و رفيق دربه البشير الإبراهيمي الذي يروي لنا تفاصيل ذلك

57 ابن باديس، افتتاحية العدد، الشهاب، ج1م12 عدد أبريل 1936، ص2-3

58 ابن باديس، محمد صلى الله عليه وسلم، رجل القومية العربية، الشهاب ج3، م12، عدد يناير

سنة 1936، ص 102-103

التناجي حول هذا المشروع النهضوي، فيقول " كنا نُؤدي صلاة فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منزلي فنسهر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل، حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح. ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة، كانت هذه الأسفار المتواصلة كلها تدييراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى في مخيلتنا"⁵⁹ ولم يتوان ابن باديس بعد رجوعه، في ان ينقل ذلك "القلق الحضاري" بمواقفه وسلوكه وتضحياته، موظفا خطبه ومقالاته ودروسه، وبما أوتي من الحنكة العقلية وبيان وبلاغة لفظية الى رفقاء دربه وطلبته وأتباعه، والى عامة أفراد الأمة، كل حسب استعداده ومقدرته يلهب به حماسهم ويدفعهم الى العمل الدؤوب دون كلل او تخاذل

ولاشك أن معاينة الشرق الإسلامي وهو يتحمل ضد الاستعمار، ورؤيته وهو يزيل عن عينيه نوم الغفلة والسكينة، ويشرع في بناء نهضته بكل قوة، مستجيباً لدعاة الإصلاح فيه، قد ساهم أيضاً في شحذ الهمم وخلق العزائم، وقد زادت وصية شيخه "حمدان الونيسي" بالعودة الى الجزائر، والمرابطة في سبيل الله على هذا الثغر من ديار الاسلام، قد جعلت الرؤية تتضح بقوة والأهداف تتحدد، وما كان تطوعاً فيما سبق، أصبح الان واجبا شرعياً وفريضة حضارية، وعلى ذلك عاهد النبي صلى الله عليه وسلم أمام قبره، "الأعيشن في سبيل دينك وأمتك مجاهداً، ولأموتن في سبيل دينك وأمتك شهيداً" كما ينقل عنه أحمد توفيق المدني⁶⁰ وهذه المهمة قد تعينت عليه داعية إسلامياً ومصالحاً اجتماعياً، فلانماص من تحمل عبء هذه الدعوة وتقلد شرفها

وهذه المرة عاد ابن باديس الى الجزائر شهاباً واريماً، يحمل في ذهنه تصوراً واضحاً عن مشروعه التغييرى النهضوي، فبدأ حركته الدعوية التعليمية في معظم مساجد قسنطينة وكتابها، كمسجد "سيدي قموش" و "سيدي عبد المؤمن" و "سيدي بومعزة" والمسجد الكبير ثم أستقر به المقام في الجامع الأخضر⁶¹، وتوطين هذه الانطلاقة من المؤسسات الروحية، الأكثر حضوراً في حياة الجزائريين، الغرض منها ان يستلهم بها البدايات الأولى لبناء الدولة الإسلامية في المدينة، ليؤكد على مركزية المسجد في عملية

59- د. تركي رايح، المرجع السابق، 172

60 أحمد توفيق المدني، عبد الحميد ابن باديس، الرجل العظيم، مجلة الاصاله، العدد 44، ص 64
61 كان الفضل في ذلك لجهود والده لفي الحصول على رخصة للتعليم من الادارة الفرنسية بعد أن كانت قد منعت من التعليم في الجامع الكبير، ينظر الشهاب، ج4، م14، ص 304

البناء الحضاري للامة، ويعيد له وظيفته في المجتمع المسلم ورسالته التعليمية المقرونة به عبر التاريخ، ويؤكد عمليا ما يعتقد انه "المسجد والتعليم صنوان في الاسلام، من يوم ظهر الاسلام، فما بنى النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه، ويجلس ليعلم أصحابه، فارتبط المسجد بالتعليم ارتباطه بالصلاة"⁶² ثم يستنتج هذه القاعدة التي يسعى الى ترسيخها في العقول كحقيقة شرعية محكمة "فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم"⁶³ يضيف بذلك على حركة التعليم قدسية وشرعية لا يمكن المساس بها، ولم يكن هدف التعليم المسجدي هو تلقين المسائل الدينية واللغوية فحسب، بل إن جهوده تدرج في إطار أوسع من ذلك، فقد كان يطمح الى ايجاد الظروف والشروط الضرورية للنهوض بالمجتمع في مختلف الميادين وتكوين الفرد للقيام بوظيفته الاجتماعية⁶⁴

6-القران وحركة التغيير الفردي والاجتماعي:

إن إعادة تشكيل عقل الفرد المسلم الجزائري، وبناء تصورات صحيحة في ذهنه عن طريق التعليم، لا يتم في نظر ابن باديس الا بفهم السلف وعلى نهجه " ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه ومادته وصورته"⁶⁵ أي العودة بالتعليم الى منابعه الاولى الصافية وهي الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح، فقد جاء في الاصول العشرين لدعوة جمعية العلماء ما لي :

3-القرآن هو كتاب الاسلام

4-السنة (القولية والفعلية) تفسير وبيان للقران

5-سلوك السلف الصالح (الصحابة والتابعين وأتباع التابعين) تطبيق صحيح لهدي الاسلام

62ابن باديس، تقرير في التعليم المسجدي، أثار ابن باديس، المصدر السابق، ج3، ص 225
63نفسه

64- على علواش، المرجع السابق، ص 87

65 ابن باديس، صلاح التعليم أساس الاصلاح، المصدر السابق، ص 3

6-فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الاسلام ونصوص الكتاب
والسنة⁶⁶

وحسب الخطة التي رسمها مع صديقه الإبراهيمي في المدينة عام 1913، وضع ابن باديس منهجا تربويا للنشء الجديد يقوم على " عدم التوسع له في العلم وتربيته على فكرة صحيحة "⁶⁷، أي عقيدة سليمة خالية من الشرك وأوهام الطريقة، وتصور صحيح عن الكون والحياة والإنسان و تقويمه سلوكيا واجتماعيا، ليصبح فردا فعلا في خدمة أمته برؤية دقيقة عن واقعه الحضاري ووضعيته الاستعمارية بأدراك خطورتها وتحديد واجباته اتجاهها

ولالإمام بن باديس " في القرآن راى بنى عليه كل أعماله في العلم والاصلاح والتربية والتعليم وهو أنه لا فلاح للمسلمين الا بالرجوع الى هديه والاستقامة على طريقته "⁶⁸ و أن في دراسة القرآن الكريم وتفسيره محاولة لبعث المجتمع الإسلامي الذي عرف مرحلة الركود الحضاري منذ أزمنة بعيدة، عن طريق بناء الإنسان المسلم بناء قرآنياً يكسبه الفعالية الحضارية، اذ يقول " اننا نربي والحمد لله تلامذتنا على القرآن، وغايتنا التي ستتحقق، أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الامة أمالها "⁶⁹ في تحقيق اعتناقها وتحررها و خروجها من مرحلة الانحطاط الحضاري التي تعيشها

فقد كان يتمثل الشعب الجزائري وهو يحيا من جديد بالقران كذلك الجيل الفريد من الصحابة الذي كونه القران سليم الوجدان، خال من الامراض النفسية والاجتماعية، رباني العقيدة، يسير على طريق العزة والسيادة " ان القران الذي كون رجال السلف لا يكثرث عليه ان يكون رجالا في الخلف، لو حسن فهمه وتدبره وحملت الانفس على منهاجه "⁷⁰ فقد كان على يقين ان هذا الدستور الرباني قادر على إعادة البناء من جديد، وبعث الحياة مرة أخرى، لكن بشرط تتغير منهجية التلقي منه والتعامل مع آياته

66-عبدالرحمان شيبان، من وثائق ج ع م ج، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص 15

67البشير الإبراهيمي، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 21، ص 143،

68الإبراهيمي، الآثار، المرجع السابق، ص 12

69 ابن باديس، كلمة المحتفل به، الشهاب، عدد خاص، م4، ص05 291

70 نفسه، ص 290

ولذلك اندفع يفسر القرآن الكريم، ويشرح سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) باعتبارها مفسرة للقران فالنبي (ص) "هو المبين للناس ما نزل إليهم من ربهم، وأن عليهم أن يأخذوا ما أتاهم وينهوا عما نهاهم عنه، فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن"⁷¹، وكان كما تصفه عائشة "خلق القرآن" فقد، ختم الموطأ للإمام مالك شرحاً ودراسة، وأقبل على سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين من القرون المضيئة الأولى، ذلك الجيل الأول الذي تربي في أحضان النبي -صلى الله عليه وسلم، والذي تمثل القرآن في سلوكه وحياته كلها، فكان تطبيقاً عملياً لأحكامه، وجعل منها نموذجاً يقتدى بهم، و"كان يعلمهم هذا الدين بتلاوة القرآن عليهم. وبما بيّنه لهم من قوله وفعله وسيرته وسلوكه في مجالس تعليمه، وفي جميع أحواله فكان الناس يتعلمون دينهم بما يسمعون من كلام ربهم وما يتلقون من بيان نبينهم، وهو سنته التي كان عليها أصحابه والخلفاء الراشدون من بعده وبقية القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية من التابعين وأتباع التابعين"⁷²

قضى ابن باديس ربع قرن كامل في خدمة القرآن، إقراء وتلاوة وتفسيراً على الطريقة السلفية، يحلل به الأمراض الاجتماعية، وينبه الأذهان والعقول إليها، واستطاع ان يربي للجزائر جيلاً قرآنياً كان عماد نهضتها العربية الاسلامية وطليلة المناضلين من أجل تحريرها من المستعمر الغاصب⁷³ وكان له كما يقول الابراهيمى ذوق خاص في فهم القرآن وتفسيره على تلك الطريقة السلفية، ولكن هذا الذوق مضبوطاً وتوطره معارف عديدة وعلوم شتى و "ملكة بيانية راسخة، وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها، وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه، وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران، يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير"⁷⁴ ولا شك ان هذه القاعدة العلمية الواسعة والمتنوعة ستنتج فهماً مميزاً للقران وقدرة عظيمة على سبر أغواره واكتشاف أسرارها واستنباط أصول الهداية الربانية منه، فمن خلال

71 ابن باديس، اثار ابن باديس، المرجع السابق، ج1، ص 409

72 ابن باديس، صلاح التعليم اساس الاصلاح، الشهاب ج11، م10، عدد اكتوبر 1934، ص 3

73 تركي رابع، المرجع السابق، 218

74 في عدد جوان 1935م الآية: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ الابراهيمى، الشهاب، عدد خاص،

4-5مجلد 14، ص 167

تفسيره للآيتين 15، 16 من سورة المائدة مثلاً، كما يعلق مالك بن نبي "قد أمدنا .، بصورة ما، بطيف ذاته، فالذي يتكلم إنما هو الذاب عن الدين، والناقد الاجتماعي، والعالم المحقق، والمصلح، والصوفي، كل بدوره. ..وأن غنى هذه الذات ليس محصوراً كله في فعل واحد من أفعال هذا الفكر وهذه السيرة اللذين بعثا الحياة في فترة ما من تاريخنا الوطني."⁷⁵

وكما ان القرآن علاج للفرد من أمراضه النفسية، فهو أيضا يقدم حلولاً للآزمات التي تتخبط فيها المجتمعات الانسانية على جميع مستوياتها الحضارية، سواء تلك التعيسة التي تعاني من مشكلات التخلف أو تلك التائهة التي تعاني من ملوثات الحضارة وأمراضها "فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظام التعامل وسياسة الناس ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الانساني من جميع أمراضه وعلله"⁷⁶ فهذا الدستور الخالد يكتنز أصول الهداية الاجتماعية القائمة على العدالة والسياسة الراشدة وجميع انواع المعاملات. و" لا نجاة من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب الذي نذوقه ونقاسيه الا بالرجوع الى القرآن الى علمه وهديه وبناء العقائد والاحكام والآداب عليه. والتفقه فيه وفي السنة النبوية وشرحه وبيانه "⁷⁷

ان طريقة ابن باديس في الاصلاح والتربية قرآنية ربط فيها العقائد بالعلم والاخلاق والمعرفة والسلوك والدين والحياة بأساليب قرآنية متنوعة وإفناع العقل بالحجة والدليل وكانت الحقائق التي يعرضها في مجالس التذكير تتجه الى العقل وتنفذ الى النفس والوجدان⁷⁸ لقد جعل من القرآن محورا لحركته الدينية الاصلاحية، ومصدرا يستمد منه معالم المنهج الرباني في استعادة الامة موقعها من التاريخ والحضارة

7- عوائق التغيير القرآني :

75مالك بن نبي، تقديم الجزء الاول من آثار ابن باديس، المرجع السابق، تح عمار طالبي، ص13

76تفسير ابن باديس، المرجع السابق، مج 1، ص 144

77ابن باديس، آثار، ج3، ص 550

78- على علواش، المرجع السابق، ص 240

ورغم أن "القران" وهو الكتاب الخالد الذي أحدث تلك القفزة الحضارية في المجتمعات الجاهلية، وصنع منها أمة وحضارة راقية، محفوظ في الصدور والسطور، ومتداول بين المسلمين كما انزل، فما الذي يحول دون فعاليته وتأثيره في النفوس اليوم بالقدر الذي تم من قبل في تاريخ الامة الاسلامية؟ وما هي العوائق التي تقف دون تكرار التجربة الحضارية من جديد؟ تلك هي المعضلة المنهجية التي شغلت عقل ابن باديس وصديقه الابراهيمي طويلا، ودفعتهما الى البحث عن مكمّن الداء واصل المشكلة

قام ابن باديس بنقد المناهج العتيقة في التعامل مع القران وطرق التفسير التي كانت سائدة في المعاهد العلمية في وقته، كالزيتونة والازهر، وفي المغرب والاندلس سابقا وانطلق في نقده من تجربة ذاتية اذ يسجل بقوله "لقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس أية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك"⁷⁹ ثم يبين مصدر هذا التقصير والخلل "ومن اين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوما منزلة القران من التعليم الديني والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك"⁸⁰ فلم يلق القران عناية كبيرة من المشايخ، لا دراسة ولا تأويلا

وأكد بأنها مناهج تحول دون الانتفاع بهداية القران، واعتبر هذا مظهراً من مظاهر هجر القران، فقد "دعانا القران إلى تدبره وتفهمه والتفكير في آياته ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه، فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في الحلول الالية، دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلاً، بل ويصير مدرساً متصدراً ولم يفعل ذلك"⁸¹.

ويضيف الابراهيمي ان "تدبر القران واتباعه هما فرق بين اول الامة وآخرها، وأنه لفرق هائل، فعدم التدبر أفقدنا العلم، وعدم الاتباع أفقدنا العمل، واننا لا ننتعش من هذه الكبوة الا بالرجوع الى فهم القران واتباعه"⁸² فالتدبر القرآني هو الذي يشحذ فعالية المسلم الروحية ويحول معارفه الدينية الى سلوك حضاري ومحرك اجتماعي

79- ابن باديس، آثاره، المصدر السابق، ج3، 219

80- نفسه

81 نفسه

82- الابراهيمي، كلمة التصدير لهذا العدد، الشهاب، ج4، م 14، جوان -جويلية 1938، عد خاص،

ص166

كما غاب على العقل الفقهي اشتغاله بالفروع أي فروع المذهب المالكي والمتون والشروحات، والحواشي، وإهمال الأصول، من الكتاب والسنة، وانغماسه في مجادلات لفظية وعقائدية، عقيمة ومن ثم وقع التمكين للفقه على حساب أصول الفقه وما يرتبط بها من آليات الاجتهاد، كما انعكس التشبث الحرفي بفروع المذهب سلبا على علوم العقل والنظر، فاستهدفت علوم الكلام والتصوف والشعر والأدب. وهي علوم فرعية، وهكذا كان حال الفقهاء في الاندلس وتسبب في ضياعها كما يقول نقلا عن ابن عبد البر " لا يقيمون علة ولا يعرفون للقول وجهها، وحسب أحدهم أن يقول فيها رواية فلان ورواية فلان ومن خالف عندهم الرواية التي لا يقف على معناها وأصلها وصحة وجهها، فكأنه خالف نص الكتاب وثابت السنة"⁸³ فتكرس التقليد ونبت الاجتهاد والتجديد والتأصيل، وساد الجمود والانحطاط في الحياة الفكرية

وبهذا التحليل العميق لمشكلة النهضة في الجزائر، تمكن الفريق الاصلاحى برئاسة ابن باديس من حصر المشكلة في دورتها الحضارية، بإعادة النظر في منهجية التعاطي مع القران، باختيار طريقة السلف، والتلقى المباشر منه و" اقلاعهم النهائي عن الطرق المنهجية المتحجرة التي كانت سائدة، . . . ولم يقتصر تعلم القران على الحفظ فقط، ولم يعد غاية في حد ذاته، ولكنه كان مرفوقا بتأويلها وشرحها"⁸⁴ وكما أتى القران لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر فإنه حقيق بان يأتي بتلك المعجزات في كل زمان اذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعممته⁸⁵

و يشبه مالك بن نبي النزعة التجديدية لابن باديس وعصره، بجهود ابن تومرت في العصر المرابطي، حيث قام هذا الاخير بحركته الاصلاحية ضد انزلاق الضمير الاسلامي نحو النزعة الفقهية، وتضخم فقه الفروع، وأهمل النظر في الاصول من الكتاب والسنة، الا ان عصر ابن باديس سيطرت عليه أيضا النزعة الصوفية الطرقية، وحلت التميمة والزواوية في هذا العصر محل الفقه والرباط في ذلك العصر⁸⁶.

كما أحدث ابن باديس ثورة في مناهج التعليم خدم أهدافه الحضارية في بث الوعي وتحقيق النهضة ولم يقتصر على التعليم الديني فقط بل كما يصرح " أدخلنا في

83 ابن باديس، الآثار، ج4، المصدر السابق، ص 203-204

84- محفوظ قداش، الجيلالي صاري، م س، ص 249

85- الأبراهيمي، عيون البصائر، ج3، ص 07

86 مالك بن نبي، تقديم كتاب اثار ابن باديس، ج1، ص 10

برنامجنا دروسا لتعلم اللغة العربية وأدبها والتفسير والحديث والاصول ومبادئ التاريخ والجغرافية والحساب وغيرها،..وأحدثنا تغييرا في اسلوب التعليم..وتحبيب في فهم القران وندعو الطلبة الى الفكر والنظر في الفروع الفقهية والعمل على ربطها بأدلتها الشرعية ونرغبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين⁸⁷

كما شكلت الدعوة الى الانفتاح على علوم العصر والاعخذ بأسباب المدنية الحديثة اتجاها ثابتا في حركته الاصلاحية، والعودة الى منهج السلف لا يتنافى في نظره مع الاخذ بالتطورات العصرية والعلمية والتكنولوجية، وفي خطاب يوجهه للمسلم الجزائري يدعوه فيه اولا الى المحافظة على الهمال والحياة والدين والوطن، ثم يؤكد له "وإذا أردت الحياة لهذا كله، فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل.كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك وريقك"⁸⁸

ولا أدل على نجاح ابن باديس في حركته التعليمية من شهادة صديقه الإبراهيمي اذ يقول "رأيت بعيني النتائج التي حصل عليها أبناء الشعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم ابن باديس، واعتقدت في ذلك اليوم ان هذه الحركة العلمية لها ما بعدها وأن هذه الخطوة المسددة التي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس في نهضة عربية في الجزائر"⁸⁹ فقد كانت دروسه في التفسير والحديث والحضارة الاسلامية عامرة بكل ما من شأنه أن يبعث في الجزائريين روح الحياة والوعي واليقظة العامة وقد استطاع من خلالها ان يبعث حركة فكرية وسياسية واجتماعية كانت لها ابعاد عميقة في نهضة الجزائر الحديثة⁹⁰ وحسبه من المجد التاريخي كما يقول الابراهيمي انه أحيا الامة والدين، وان تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية، وأن آراءه في الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي أصبحت دستورا يهتدي بها العلماء والمفكرون والسياسيون⁹¹ ويمكن تصنيفها بين الاتجاهات الكبرى المحركة للتاريخ الحضاري⁹²

87-ابن باديس حيته واثاره، المرجع السابق، ج2، ص 27

88-ابن باديس، اثار ابن باديس، المرجع السابق، ج3، ص178،

89-محمد البشير الابراهيمي، في قلب المعركة 1954-1964، الجزائر دار الامة، ط1، 1994، ص 216

90-تركي رايح، م س، ص 254

91-الابراهيمي عيون البصائر، ج3، (1947-)، 1952 91

92-محمد الميلي، المرجع السابق، ص 91

ويستطيع الجميع ان يدرك اليوم وبعد ان افتكت الجزائر استقلالها — مع المستشرق وات — "أن الاسلام كان أكثر من مجرد عامل ديني بالمعنى الغربي الضيق، و سننظر اليه على انه تلك القوة الهائلة المؤثرة في شؤون الدولية والتي بالرغم من كره السياسيين الفرنسيين لها كان لها النصيب الاكبر في وضع حد لمائة وثلاثين سنة من المجهودات الفرنسية في الجزائر"⁹³ وليس هو سوى الإسلام السلفي كما شرحه ولفنه ابن باديس والعلماء للشعب الجزائري.

خاتمة :

أثارت هذه المقالة في ذهنية القارئ جانبا في غاية الأهمية من جوانب الاتجاه الإصلاحى في الجزائر، و المتعلق بمحورية " الهداية " القرآنية في تفعيل " الفكرة الدينية في حياة الامة كما أسست لها الحركة الباديسية، وقد بينت كيف حمل ابن باديس والعلماء على عاتقهم مهمة ربط المجتمع الجزائري بالإسلام كمنهج حياة، وتهيئة العقول والنفوس ليكون للقران التأثير القوي فيها وإعادة تركيبها وفق الرؤية الربانية للحياة والكون، وهذا الجهد الإصلاحى في رأي ابن باديس لن يؤتي ثمرته الحضارية المرجوة، الا عن طريق إصلاح التعليم وتغيير منهجه التقليدي السائد في ذلك العصر، وطرح ما علق به من معوقات فكرية وسلوكية .

كما ان هذا المنهج لم يكن ليحقق أهدافه التغييرية ما لم يكن مستمدا أصوله من فهم السلف الصالح وتطبيقاته العملية للقران الكريم، هذا الفهم الذي حرر الإسلام من القيود التي حدت من حركته وفعالته، كالخرافات والبدع، والتقاليد الميتة، كما عرضت المقالة نظرة أخرى الى العمل الاصلاحى، وذلك من زاوية تربوية —اجتماعية ذات الابعاد الحضارية، قد يتجاهلها بعض من يؤرخ للأفكار التحررية في نضال الحركة الوطنية في الجزائر، فيبخسها حقها ويحشرها في ركن ضيق، وقد نجح ابن باديس نجاحا مبهرا في أهدافه التعليمية والتربوية، وقد شهد تطور الأحداث في الجزائر على فعالية المنهج الذي اعتمده في الإصلاح والتغيير الحضاري .

وفي الختام بقي أن نشير الى أن دراسة علمية متخصصة وواسعة تقع خارج نطاق هذه المقالة، تهتم بمنهجية ابن باديس التفسيرية للقران الكريم وفق هذه الرؤية

⁹³مونتغمري وات، ماهو الاسلام تر : ابو بكر الفيتوري، مركز العالم الاسلامي لدراسة الاستشراق دار قتيبة، دمشق، ط1، 2012، ص29

الحضارية، صارت أكثر من ضرورية، وستكون كقيلة بتجلية عناصر الموضوع وتعميقها، والاجابة على اشكالياته الجزئية العديدة التي قد تثيرها

المراجع:

القران الكريم

- 1-الابراهيمي، محمد البشير كلمة التصدير لهذا العدد، الشهاب، ج4، م 14، جوان -جويلية 1938، عد خاص.
- 2- //، محمد البشير، عيون البصائر، ج3، (1947-)، 1952¹
- 1.....، أثار الامام محمد البشير الابراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الابراهيمي دار الغرب الاسلامي، ط1، 1997، ج1، ج2، ج3
2. ابن باديس عبد الحميد الاسلام الذاتي والاسلام الوراثي :أيهما ينهض بالامم ؟ الشهاب، ج3، م 14، ربيع لأول 1357هـ/فبراير 1938م
- 3.....، الشهاب، عدد خاص بمناسبة الاحتفال بختم الامام ابن باديس تفسير القران الكريم، ج4، م14، جوان -جويلية 1938
- 4.....، بين الموت والحياة، الشهاب، المطبعة الاسلامية الجزائرية، قسنطينة، أفريل 1930،
- 5.....، تقرير في التعليم المسجدي، أثار ابن باديس، م س، ج3
- 6.....، خطاب رئيس ج ع م ج، بنادي الترقى بالعاصمة، الشهاب، ج8، م12، شعبان 1355، نوفمبر 1936
- 7.....، فاتحة السنة الرابعة عشرة، الشهاب، ج1، م 14، العدد مارس 1838-
- 8.....، فاتحة السنة الرابعة عشرة، الشهاب، ج1، م 14، العدد مارس 1838
- 9.....، فاتحة العام الثاني من العقد 2، الشهاب، ج1، م 12، محرم 1355، أفريل 1936
- 10.....، كلمة المحتفل به، الشهاب، عدد خاص، م4، 05
- 11.....، افتتاحية العدد، الشهاب، ج1م12عدد أفريل 1936
- 13.....، صلاح التعليم اساس الاصلاح، الشهاب ج11، م10، عدد اكتوبر 1934،
- 12.....، لمن أعيش ؟ الشهاب، ج10، م12، شوال 1355/يناير 1937
- 13.....، محمد صلى الله عليه وسلم، رجل القومية العربية، الشهاب ج3، م12، عدد يناير سنة 1936، ص 102-103¹ أحمد توفيق المدني، عبدالحميد ابن باديس، الرجل العظيم، مجلة الاصاله، العدد 44،
- 14..... اثار الامام ابن باديس، اعداد وتصنيف عمار طالبي، الشركة الجزائرية الحاج عبدالقادر بوداود، الجزائر، ط3،
- 15..... عبد الحميد تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب : توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003

16. عبد الحميد، اثار الامام عبد الحميد ابن باديس وزارة الشؤون الاسلامية، ط1، 1985، الجزء 4،
17. باعزيز بن عمر، عظمة الاستاذ الاكبر عبد الحميد ابن باديس، جريدة البصائر، ج ع م ج، العدد 34، 03 ماي سنة 1948، ¹ محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، طبع وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.
18. تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الاصلاح والتربية الوطنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4، 1984
19. جاسم سلطان، الذاكرة التاريخية: نحو وعي استراتيجي بالتاريخ، ام القرى، ط3، 2007
20. رياض بن علي الجوادي، الفعالية الحضارية للاسلام، دار التجديد، تونس، ط1، 2020
21. الطيب برغوث، التغيير الاسلامي، خصائصه وضوابطه، مكتبة رحاب، الجزائر، دت،
22. عبد الرحمان شيبان، من وثائق ج ع م ج، دار المعرفة، الجزائر، 2008،
23. على علواش، حركة بن باديس التربوية وأهدافها الاصلاحية، دكتوراه مرقونة، جامعة الجزائر، دائرة الفلسفة، 1983-1984م، اشراف الشيخ ابو عمران
24. على مراد، الحركة الاصلاحية الاسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي من 1925-1940م، دار الحكمة، الجزائر، 2007،
25. عمار طالبي، مدخل الى الحياة العقلية والنهضة الحديثة بالجزائر، اثار ابن باديس، م س، ج1
26. ليكو دو باري، ماذا يقال عن جمعية العلماء (L'Echo De Paris) البصائر، ج ع م ج، السنة الثانية، العدد 61، 20 محرم 1937 الموافق 02 أبريل 1937م
27. مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبدالصبور شاهين، دار الفكر، 1986
28. محفوظ قداش، الجيلالي صاري الجزائر في التاريخ، " المقاومة السياسية 1900-1954، تر: عبدالقادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987
29. محمد البشير الابراهيمي، في قلب المعركة 1954-1964، الجزائر دار الامة، ط1، 1994
30. محمد الهادي سنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، المطبعة التونسية، تونس، ط1، 1996، ج2.
31. مصطفى صادق الرافعي، اللغة والدين والعادات، بأعتمادها من مقومات الاستقلال، الشهاب، ج3، م12.
32. مونتغمري وات، ماهو الاسلام تر: ابو بكر الفيتوري، مركز العالم الاسلامي لدراسة الاستشراق دار قتيبة، دمشق، ط1، 2012.